مصطفى يعلَى

بـارابـول

لتعويم ضجز العزلة وامتصاص مرارته، شغلت جهاز التلفزيون. أصبح في إمكاني بفضل البارابول أن أنخشر في العالم، وبالعكس يقتحم عالمي العالم. أتفرج عليه متثاقلاً على مقعد المُقعدين. ويتسرب إلي أملس أو خشناً عبر الصحن الرداري المقعر، مترعاً إياي بشعور معطر بالصفاء الهلامي، والأمل السرابي، والاطمئنان الخادع أحياناً، وبإحساس مرشوش بالجهل والغبن والعجز والظلم والخوف والبرد أحياناً. فأتثاقل أكثر على مقعدي، ويتضاعف شعوري الحاد بعدم القدرة على الوقوف على رجلي.

قناة أولى:

أكيد أن هناك برنامجاً ثقافياً يقدم حالياً في هذه القناة، وإلاّ فلماذا يبدو المتحدث كما لو بعث من العصر الحجري؛ رأس، سوالف في لون التراب، ولحية كثيفة ذات عمر طويل، وبين الرأس واللحية يطل وجه نمس في استدارة طماطم، ذو سحنة مدبوغة بالسمرة. وربما رسّخ هذا الانطباع كون المتحدث يرتدي بزة جاكي ملساء من الوسخ المترسب بسبب القدم، ويقف وسط كهف أقرب إلى الظلمة منه إلى النور، تنام على حصيرة كتب وجرائد حائلة، ويتصدره فراش وحيد لا يصلح لنوم البهائم، بينما راح ينعب بإحدى زواياه الأكثر إظلاماً بوم مربوط بشريط إلى مسمار كبير بالجدار. إن كثيراً منكم يا معشر النظارة ممن لا علاقة لهم بهذا الميدان سيظنونه من مرقصي الأفاعي، أو ممن يقرأون الكف، أو يبيعون الأدوية المزعومة بالأسواق الأسبوعية. بينما على الأصح، فإن المتحدث كاتب كبير، بدليل أنه يكثر من استعمال ضمير المتكلم المفرد المفخم، وهو يجيب على أسئلة مبتذلة لمذيعة غير معروفة الوجه تريد أن تملأ فراغ برنامج ما.

سؤال: ما رأيك في الحركة الأدبية المعاصرة عندنا؟.

جواب: سيئة للغاية، فأين هم القصاصون والمسرحيون والشعراء والنقاد والباحثون أمثالي. ليس هناك سوى أنصاف المبدعين والكتّاب للأسف.

سؤال: لكن هناك فلان، وفلان، وفلان، ونظراؤهم؟.

عدل الكاتب الكبير من وضع نظارته الطبية الكابية السميكة على أرنبة أنفه. حك هامته. ودون أن يبدو عليه أنه سيقلب الأمر على كل وجه، وكأنما كان يتربص بهذه السانحة، أسرع بالجواب في طلاقة ولسن، ورذاذ البصاق ينشب خلال ثنايا أسنانه:

ـ فلان حمار، وفلان جاهل، وفلان نكرة، أما فلان فتافه.

سؤال: لكن فلاناً يقول إن ما تكتبه ليس ذا بال، وفلاناً يؤكد أنك تكرر نفسك، وفلاناً يصف أدبك بالضحالة وأنه مجرد هلوسات تركب قطار التجريب. بل إنّ أحد الفلانين يتهمك بالسرقة من كاتب أمريكي.

تنحنح الكاتب الكبير. زحزح جسمه في شكل قلة قليلاً وهو يفتل شاربه، ثم أجاب، ومكبر الصوت يلتقط صوت أنفاسه:

لست في حاجة لكي أذكّرك بالمثل إن من لا يطول العنب يقول عنه إنه حصرم. واسمعي نصيحة لوجه اللّه، يجب ألاّ تثقي كثيراً بكلام الحسدة. إنهم يريدون الاشتهار على حسابي. فأنا كما تعرفين ويعرف النظارة الكرام، كاتب كبير في علم الفلك والسحر والديموغرافي ورحلات كوسطو والحروب البونيقية ومستقبل البيئة وغيرها من المواضيع المهمة، وأما أدبي فهو مترجم إلى كل اللغات الحية وبعض الميتة، والناشرون والقراء يتهافتون على انتاجي، فضلاً عن أن صورتي كثيراً ما تملأ أعمدة الصحف. الحقيقة أن من ذكرتهم يريدون استثمار شهرتي، لكنني لن أمكنهم من هذه الفرصة.

سؤال: ومن تضعه في مرتبتك إذن؟

لم يحمر وجهه، ولم يصفر، ولا أخضر وهو يجيب:

ـ للأسف لا أحد، فأنا وحيد قرني.

هنا وجدتني لا أتمالك نفسي، فأغرق في غواية القهقهة حتى فاضت عيناي بالدموع.

قناة ثانية:

للوهلة الأولى يمكن الجزم بأن هذا الاجتماع الذي نشاهده، هو اجتماع إداري أو تربوي أو جمعوي أو ما شابه ذلك. على كل سنتأكد منه بالمتابعة.

يقول مسيّر الاجتماع:

«بعد إطلاعكم على جدول الأعمال المحدد بعناية فائقة، وكلمتي التقديمية المتناهية الموضوعية، سأفتح باب المناقشة المثمرة، على أن أسجل المتدخلين في لائحة أولى، راجياً منكم منتهى التركيز والإيجاز والبعد عن التكرار واحترام الرأي الآخر».

الأصابع والرؤوس والألسنة وضربات القلب تشرئب. ترمومتر الغضب والحقد والتربص والمصلحة يتعالى. اللائحة الأولى تسودّ بالأسماء عن آخرها.

ـ الكلمة لفلان.

ـ شكراً سيدي الرئيس. إنني في الحقيقة والواقع، ودون مجاملة أو نفاق، وحتى لا أظلم أحداً، ولا أبتعد عن الموضوع والمحاور المسجلة بجدول الأعمال، وكما تقتضي المصلحة العامة، إن القاعدة العامة المعتمدة في مثل موضوعنا أن ننظر إلى الموضوع من كل الجوانب والأبعاد والغايات...

أحدهم يضرب وسط كفه اليسرى بسبابته اليمنى ضربات متوترة متواترة، طالباً نقطة نظام، ثم يصرخ قبل أن يسمح له مسير الاجتماع بالكلام:

ـ ماذا تقصد بالجوانب والأبعاد والغايات؟ إنه تعريض واضح نرفضه، ونية مبيتة نندد بها، وهدف مغرض نشجبه.

آخر يتدخل:

ـ احترم نفسك، إن الأمر ليس كذلك، فالمسألة وما فيها....

ثالث يصب الزيت في النار:

ـ مع الأسف إننا نضيع وقتنا مع أناس ليسوا في مستوى أي شيء.

رابع يقول:

ـ هذا لم يعد اجتماعاً بل سوق جملة.

المسيّر يتدخّل بصوت مرتفع غاضباً:

ـ صمتاً من فضلكم، التزموا اللائحة الأولى.

أصوات المجتمعين تتهافت:

اسمح لي بتوضيح بسيط.. أضيف إلى ذلك.. لا بد أن.. وعلى مستوى.. حول مسألة. أنتهز الفرصة.. إنه.. لكن.. حقاً إن.. لعلّ الأمر.. ربما كان.. إلا أنه.. فقد يتعذر.. إن خطة العمل.. أذكّر بأن.. لا يمكن.. دونما رجوع.. ماذا تقولون عن.. واضح أن.. فكما يبدو.. حول مساهمة.. لاحظوا أن.. وإذا نظرنا إلى.. علماً بأن.. يجب الاعتراف بأن.. بل يجب أولاً وقبل كل شيء.. أعتقد أن الأمر يقتضي.. وهناك نقطة أخرى.. إن طرح السؤال.. وهكذا نرى أن...

قناة ثالثة:

رجل لعلّه طبيب أو ممرض أو حارس، يخرج من ثلاجة المستودع ثلاث جثث أنثوية قصيرة متصلبة، تبدو من خلال غمزات الضوء الأزرق الشاحب، وهي مجللة ببخار التبريد الرمادي، كدمى دكاكين الملابس. لكن من يكون الرجل؟ قلت إنه طبيب أو ممرض أو حارس. لا، لا، إنني غير متأكد من ذلك. ألا يكون الأمر متعلقاً بأحد أفلام دراكولا؟. سنرى.

وضع الجثث ممددة أمامه، وشرع يخاطبها بصوت نسوي مبحوح: «أين اللحم المكتنز؟ والدم الفوار؟ والعرق الساخن؟ والرشاقة الداعرة؟ والخيلاء المسرفة؟». بل قل أين ذلك من عهد حواء وكليوبترا وبلقيس وماري انطوانيت ومارلين مونرو؟. «ها أنتن بلا حراك شهيات كلحم الخنزير. لا ينفعكن أي تمنّع وأية مقاومة أو حماية، ممتثلات طوع يدي بالمرة، أفعل بكن ما أشاء».

أقبل على الجثث؛ دغدغ الأولى، وقبّل الثانية، وعض الثالثة. إنني من حسن الحظ لا أستطيع أن أشم رائحة الأجساد الآيلة للفساد، إذ لو كان ذلك ممكناً لأفرغت أحشائي الآن على شاشة التلفزيون. فالتلفزيون حتى يومنا لا يسمح كما في علمكم بشم روائح معروضاته. ربما تطور فيما بعد وأصبح النظارة على قدرة لشم روائح ما يقدمه. أما حالياً فإنني أشم رائحة التقزز والرعب والقشعريرة، ليس بأنفي، بل بمسام أعصابي.

أرجو ألاّ أكون قد شوشت عليكم بتعليقاتي التي قد تبدو فضولية. لكن ماذا أفعل، فإنني أفيض رغبة في التحدث إلى أحد حتى وإن كان عجلتي كرسي المقعدين الذي ينوء بحملي. انتبهوا إليه على شاشاتكم، تابعوا محادثته للجثث: «أنت، يبدو أنك من وسط موسر. شموخك، وامتلاؤك، وملامحك، تنطق بذلك. والآن ماذا ترين؟، هل ينفعك ذلك قيد دولار؟. أكيد أنهم قتلوك بسبب خيانة.. وأنت، ممصوصة كعود العرقسوس، مهضومة الجسم في الحياة والممات، فلن تكوني إلاّ من وسط مستهلك بلا ريب. ولعل حادثة شغل أو سير هي المسؤولة عن موتك.. وأما أنت، فجيفة حقيرة، لا لون ولا طعم لك كالبطيخ الفاسد. أراهن على أنك كنت في حياتك الليلية والنهارية عاهرة. إنني لا أخطئ رائحتكن. اتفو عليك من حشرة بائسة. ودون أن أسأل، ستكونين قُتلت قتلة حمراء في جلسة عربدة مت فيها ميتة سوء».

الجثث هامدة محايدة خارج الزمن. لا تنظر ولا تصغي إليه. ليس في إمكانها الاحتجاج على ما يريده بها. لكنه تهيأ له أنه سمع صوتاً

مرتعباً، وتهيأ له أنه سمع صوتاً محتجاً، وتهيأ له أنه لمح الجثث تتململ. فتذكر نهوض المومياوات في بعض الأفلام السينمائية. بيد أنه لما دقق النظر فيها مصيخاً إليها، وجدها جامدة كعهده بها، غارقة في صمتها، مهيبة في عجزها، مخيفة في تخشبها، تجللها موسيقى باخ الكنائسية بلون الزعفران.

ها هو يعود مجدداً إلى مخاطبة الجثث. ارفعوا من صوت تلفزيوناتكم، لتسمعوه جيداً. تذكروا أن صوته نسوي ومبحوح، ويكاد يسمع. «إنكن تبعثن في دماغي ذكرى موت أبي في قبو رطب مظلم، وانتحار أمي تحت عجلات القطار، ومقتل أختي في حادث غامض، وتفحم صديق عمري في سوق شعبي أحرقه مجهول. لكنني أنا الآن، يمكن أن أفعل بكن ما أشاء. هل تملكن حيلة لمنعي؟ أو هل يمكن أن يمنعني غيركن؟ إن الذباب الأزرق ذاته لا يسمح له بالدخول إلى هنا. إنكن طوع أنيابي وأظافري وحوافري. بيدي مفاتيح المستودع. وبيدي مفاتيح الثلاجة. والكل يثق بي. فما رأي الجثث؟ وكما كنتن تدركن جيداً وأنتن حيات، فإن حركة الدنيا تصبح معطلة في دكنة الليل، ونحن في دكنة الليل. ألم أقل إنكن طوع رغباتي؟».

في لحظة، تحول الرجل إلى صورة ذئب مرعب، وصوته إلى وعوعة ذئب جائع، وحركته إلى حركة ذئب لاهث، كأن ساحراً ماهراً سلط عليه سحره القاهر، فمسخه من إنسان إلى ذئب، بدافع شيطاني رهيب. لكن، انتبهوا معي. فلا شيء من ذلك حقيقي. إن مرد كل هذا إلى مهارة المخرج، مستعملاً الإضاءة والألوان والمكياج بإتقان، متفنناً في تأنيث الديكور، مستعيناً بالموسيقى التصويرية، معتمداً الحيل السينمائية لإيهامنا بأن ما نشاهده وما يحدث حقيقي وواقعي.

وبدل أن ينقض الرجل الذئبي على الجثث، انبطح بينها، ثم انخرط في بكاء مرير كالنسوة.

قناة رابعة:

لست أدري ما إذا كنتم قد شبهتم صوت المعلق، وهو يلوك الكلام، بشيء ما. أما أنا فقد وجدت أنه أشبه ما يكون بلَوْك علك حقيقي.

«لعلَّه فيلم من الخيال العلمي، أو مسرحية من المسرحيات العبثية، أو حكاية من الحكايات العجيبة، أو ما أشبه. فإن حصافتنا تؤكد أنه لا يجري عادة إلا في مثل ذلك، لأن مثل هذا لا يقع في الواقع العيني، كما ستتأكدون من العرض. ونلفت انتباهكم أيضاً إلى أننا لا ندري في أي زمان ومكان تجري أحداثه».

صفان من أبواب المكاتب على مدى الممر الطويل. رجل يقتحم المكتب ١ وفي نفسه ألف لهفة ولهفة للحصول على وثيقة في أقرب وقت ممكن، مما يؤكد قيمتها بالنسبة إليه. «فقد عطلت جميع مشاغلي، وركزت كل اهتمامي على محاولة الحصول عليها. إنها وثيقة شديدة الأهمية، أو كما يقال هذه الأيام إنها وثيقة مصيرية».

المخرج يأمر بتوجيه الإنارة خافتة إلى المكتب ١. الرجل يغمغم:

ـ السلام عليكم.

ـ .....

ـ اذهب أولاً إلى المكتب ٢، وهات وثيقة ٢.

الإنارة تنتقل إلى المكتب ٢ أقل خفوتاً. هو مسح عرق جبهته.

ـ السلام عليكم.

ـ .....

ـ أريد وثيقة ٢.

ـ أذهب إلى المكتب ٣ وهات وثيقة ٣.

الإنارة تنتقل إلى المكتب ٣ أكثر إضاءة. هو مسح عرق رقبته.

ـ السلام عليكم.

ـ .....

ـ أريد وثيقة ٣.

الإنارة تنتقل من المكتب ٣ إلى المكتب ٤ قوية. أما هو فتمخط، سحب من جيبه منديلاً بعصبية، بصق فيه وثناه، ثم أعاده إلى جيبه بعصبية.

ـ السلام عليكم.

ـ .....

ـ سلمني وثيقة ٤.

ـ وهل أتيت من المكتب ٥ بوثيقة ٥.

الإنارة تنتقل إلى المكتب ٥ ساطعة. هو شابك بين أصابعه، يطقطقها.

ـ السلام عليكم.

ـ أعطني وثيقة ٥.

ـ .....

ـ عليك أن تجلب من المكتب ٦ وثيقة ٦.

الإنارة تزداد سطوعاً، فتضيء المكتب ٦. هو زفر عالياً.

ـ السلام عليكم.

ـ .....

ـ هات وثيقة ٦.

ـ لعلَّك نسيت جلب وثيقة ٧ من المكتب ٧.

كشافات الإنارة تتركز على المكتب ٧ في أقصى درجات الإضاءة. هو عاد فمسح عرقاً متجدداً من جبهته ورقبته، وقال متبرماً:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام ورحمته وبركاته. أهلاً وسهلاً. تفضل. تفضل. ما الأمر يا سيدي؟

ـ أرجو يا سيدي أن تمكنني من وثيقة ٧ لأذهب بها إلى المكتب ٦ ليسلمني وثيقة ٦، أذهب بها إلى المكتب ٥ ليسلمني وثيقة ٥. أذهب بها إلى المكتب ٤. ليسلمني وثيقة ٤، أذهب بها إلى المكتب ٣. ليسلمني وثيقة ٣، أذهب بها إلى المكتب ٢ ليسلمني وثيقة ٢، أحملها إلى المكتب ١، فيمنحني الوثيقة ١.

استفّ الموظف نفساً أخيراً من سيجارته، أجاب وهو يخنق عقبها بدفنه في بطن المنفضة:

ـ أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً. بكل فرح وممنونية. أهلاً وسهلاً. سأعدها لك في أقرب وقت ممكن. تعال.. تعال.. تعال بعد شهر.

قبل أن يقول الرجل أيّة كلمة، سحب من جيبه بيد مرتجفة منديله المبلل، وجعل يمسح عن جفنيه حبيبات مائعة، لم أستطع أن أحدد ما إذا كانت حبيبات عرق أو قطرات دمع.

قناة خامسة:

الدبابات والمدافع والرشاشات تطلق لعلعة وخراباً وحقداً. لن يكون المكان سوى فلسطين أو أفغانستان أو البوسنة. لكن بعض النساء الحوامل اللواتي أطللن في المشهد يرشحن المكان لأن يكون ربما البوسنة. اختفت من المشهد صورة النسوة الحوامل. لم يصبح هناك وجود لأي شبح بشري في المشهد. إنما هو الدخان والعمارات والمنازل المتنخربة، والطلقات البارقة الحاملة لرسائل الحقد. المعلق يسكت عن الكلام. ثم فجأة يظهر في المشهد أشخاص يحيطون بقبور حديثة. جنازة عائلية. طفل وأم وجدة ولا أحد آخر معهم. يبكون ويرددون بعض الأدعية وعبارات الترحم. تفاجئهم ضربات مدفع صاعقة، فيتعلق الطفل بأمه والأم بأمها والجدة بشجرة محترقة. وتصدر عن الجميع صرخات منكرة ليست آدمية على أية حال.

تنقل الكاميرا إلى خبر آخر.

يخت يتهادى على سطح مائي أزرق هادئ، مثلما في الوصلات الدعائية المغرية. على سطح اليخت تحلقت أسرة من جدة وأم وأب وطفل حول مائدة دائرية عريضة، تحت مظلة كبيرة مرقطة بألوان نمر. وجوههم جميعاً صبوحة وبشوشة.

ولم أسمح لأذني بمتابعة تعليق المذيع التلفزيوني. بل حولت القناة.

قناة سادسة:

وجه يملأ الشاشة الصغيرة. ليس كائناً تلفزيونياً أو مذياعياً، وإنما يشبه كائناً فلكياً، لكون لهجته تحاكي مقدّمي أحوال الطقس بالتلفزيون. ربما لا أكذب إن قلت إنه أقرب ما يكون إلى فيلسوف منقطع للتأمل، أو قائد عسكري متقاعد محنك، أو سياسي داهية. أو ربما لا هذا ولا ذاك، إنما هو رجل عادي مغرم بقراءة الطالع والطالح، يفترس النظارة المستمعين بلسانه المغلول.

كان قد بدأ الحديث قبل أن أشغل هذه القناة، مخاطباً النظارة الكرام، أو مجيباً مستجوباً فضولياً، أو يقول لنفسه. الآن إنه مسترسل في طرح نبوءاته النيرونية: «ويؤكد كتاب الغيب أن المحرقة ستكون مسعورة، مطلقة العنان، لن أستجيب لفضولكم، فابحثوا عن أسبابها بأنفسكم. سيتكسر المحرار تحت ضغطها الحامي، فتنتقع ريح السموم بالرعد بالسعير بالرمال برائحة اللحم البشري المشوي بالرماد بالزقوم. قريباً، لعلّه بحر سنة ١٩٦٧ ستقوم القيامة. وبعدها سنندفع من العصر الرملي إلى عصر البترول الحجري».

هل هذا ماض أم حاضر أم مستقبل؟ أهو برنامج (معارك العالم الكبرى)؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلية ميلودرامية لم أتفرج على بدايتها؟. أو تراني لم أر ولم أسمع شيئاً؟ لأرَ أولاً هل التلفزيون يشتغل أم لا، إنه لا يشتغل، بل يشتغل، ها أنا أسمع فم العراف يخرخر:

«وستدور الدائرة مرة أخرى مثل عجلة اليانصيب الخاسرة، فتقع الحطمة، وما أدراك ما الحطمة: دبابات تعجن الرمال بالحجارة بالبشر بالنخيل بالدولارات بالأحلام، وتصنع من كل ذلك كعكاً تفوح منه رائحة البنزين. وطائرات تصيب من القمر بطن الأرض بمناجل الموت فتقتل السمك في كرش أمه، وتفجر نيران البراكين الخاملة. تقول خطوط الطول، وخطوط العرض وأبراج السرطان والحوت والعقرب، إن ذلك ربما يحدث في مطلع ١٩٩١. عندئذ سيتأكلنا العصر القبلي السابع».

ما هذا التخريف؟ هل يمكن أن ننكمش في عصر جاهلي أو عصر منحط جديد، ونحن قد أقحمنا في عصر سرعة البرق والريح والضوء والصورة والصوت والعمليات الحسابية المعقدة، ولم يعد لنا قِبَلٌ بمفارقته؟ لا، لا، إن هذا مجرد هذيان كابوسي يشرد من خيالي وأنا نائم على مقعدي، أو أن هذا البوم سكران فلا يعي ما يرمي به النظارة الكرام من سهام نارية.

«وعندما تدور الدائرة دورتها تلك، ستقع الصاعقة طاحنة ساحقة، لا تبقي ولا تذر، ناشرة غبار العنة بين الرجال، والعقم الرجولي بين النساء، فلا يلدن سوى البنات. سنتدرج من الكثرة إلى القلة، فنموت بالجملة والتقسيط، إلى أن ننقرض انقراض الدناصير».

لن أستمر في الاستماع. إذ استرقت اهتمامي أصوات أطفال الجيران اللاهية الصاخبة، لا سيما وأنني استطعت أن أميز بينها صوتاً صغيراً يبكي.

قناة سابعة:

..... إنها لم تشرع في بث برامجها بعد.